REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المجلة التَّاريخيَّة المصْريَّة

مجلةٌ دوريةٌ تُصْدِرُها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتاب
99/9440

الترقيم الدولي
977-5366-11-9

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

١٤٤٠هـ/٢٠١٨م

قطعة ٤ بلوك ٧ ـ المنطقة التاسعة ـ شارع د. رؤوف عباس ـ مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون : ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٤ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٦ ـ فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨
Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجلة التاريخية المصرية

REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

تُصدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات ـ الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المجلد الحادي والخمسون

القاهرة

٢٠١٧م

هيئة التحرير

أ.د. أيمن فؤاد سيد ـ رئيس التحرير
أ.د. أحمد زكريا الشلق
أ.د. أحمد السيد الشربيني
أ.د. أشرف محمد مؤنس
د. محمد فوزي رحيل

الهيئة الاستشارية للمجلة

أ.د. إسحق عبيد
أ.د. السيد فليفل
أ.د. عاصم الدسوقي
أ.د. عفاف سيد صبرة
أ.د. محمد صابر عرب
أ.د. محمد السيد عبد الغني
أ.د. محمد عيسى الحريري
أ.د. محمود إسماعيل عبد الرازق

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : محمد أشرف عبد المقصود

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

المحتـويات

الصفحة

النَّقْدُ التَّارِيخِي عند الإغْرِيق
نادر فتحي محمد ٧-٤١

مَظَاهِرُ ثَـقَافَة المُرْتَدِّين في الجَـزِيرَةِ العَـرَبِيَّة
صالح بن أحمد الضويحي ٤٣-٨٢

الإنْجَازَاتُ الحَـضَارِيَّـةُ والعِلْمِيَّةُ في عَهْدِ عَضُدِ الدَّوْلَة البُـوَيْهِي
(٣٣٨-٣٧٢هـ/ ٩٤٩-٩٨٢م)
محمد طه بن صلاح بن صالح بكري ٨٣-١٢٩

قَافِلَةُ حَـجِّ عُلَـماءِ مِصْرَ في القَـرْنَيْنِ الثَّامِن والتَّاسِع للهِجْرَة
أيمن فؤاد سيّد ١٣١-١٤٩

آرَاءٌ جَدِيدَةٌ حَوْلَ الصِّراعِ المُـرَابِطِي ـ المُـوَحِّدِي من خِلالِ
«الرِّسَالَة المُنـظِّمَة» لابن تُومَرْت
عودة حسان عواد أبو شيخة ١٥١-١٧٧

السُّلْطَةُ والدِّينُ في العَصْرِ المَرِينِي بالمَغْرِبِ الأقْصَى
(٦٦٨-٨٦٩هـ/ ١٢٦٩-١٤٦٤م)
داليا عبد الهادي طلبة ١٧٩-٢٠٤

دَوْرُ الطَّائِف في الأحْدَاثِ السَّياسِيَّة في إقْلِيم الحِجَاز خِلال فَتْرَة الحُكْم
العُثْماني الثَّاني (١٢٥٦-١٣٣٤هـ/١٨٤٠-١٩١٦م)
عبد الرحمن بن سعد العرابي ٢٠٥-٢٤٨

موقف بريطانيا من الحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨-١٨٠١م)
كاترين وجيه ٢٤٩-٢٦٥

الصفحة

طاقَمُ مَكْتَب الأمير مُحَمَّد عَلِي تَـوْفِيق بمُتْحَف قَصْرِ المَنْيَل بالقَاهِرَة
«دِراسَةٌ فَنِّيَّةٌ مُقَارَنَة»
شادية الدسوقي عبد العزيز كشك ـ مي جلال عبد الباقي عبد السلام ٢٦٧ـ٣٠٢
جَرَائِمُ الحَـرْبِ الإسْرائِيلِيَّة وانْتِهاكاتُ حُقُوقِ الإنْسَان
مروة جلال محمد دغيدي ٣٠٣ـ٣٣١
النِّـزَاعُ الأنْجلُو ـ أمْرِيكِي مع بُلْغارْيَا بشَأْنِ تَـنْفِيذِ مُعَاهَدَةِ الصُّلْحِ المُـوَقَّعَة
في فِبْراير سَنَة ١٩٤٧م
شريف محمد أحمد عبد الجَوّاد ٣٣٣ـ٣٦٠

THE USES AND ABUSES OF HISTORY
ISMAIL SERAGELDIN 5-21

المجلة التاريخية المصرية ٥١ (٢٠١٨)، ١٣١ ـ ١٤٩

قَافِلَةُ حَجِّ عُلَمَاءِ مِصْرَ
فِي القَرْنَيْن الثَّامِن والتَّاسِع للهِجْرَة

أيمن فؤاد سيّد

حَفِلَت المَصَادِرُ المِصْرِيَّةُ بالحَدِيثِ على قَوافِل الحَجِّ المِصْرِيِّ إلى الأراضِي المُقَدَّسَةِ في الحِجَاز، وعلى الأَخَصِّ ابْتِداءً من العَصْرِ الفاطِمِيّ، بالرَّغْم من أنَّ أحَدًا من خُلَفَاء الفاطِمِيين في مِصْر (٣٦٢ـ٥٦٧هـ/ ٩٧٣ـ١٠٧١م) لم يُؤَدِّ فَرِيضَةَ الحَجِّ رَغْم حِرْصِهِم الشَّدِيد على إقامَةِ الدَّعْوَةِ لهم على مَنابِرِ مَكَّة والمَدِينَةِ قبلَ أنْ يَصِلَ السَّلاجِقَةُ السُّنِّيُّون إلى التَّحَكُّم في مَرْكَزِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ العَبَّاسِيَّةِ في بَغْداد في منتصفِ القرنِ الخامسِ الهجريِّ/ الحادي عَشَر الميلادي[1].

ويُحَدِّثُنا صاحِبُ كِتابِ «الذَّخَائِر والتُّحَف»، الذي كان موجودًا في مِصْر بين سنتي ٤٥٩ ـ ٤٦٢هـ/١٠٦٧ ـ ١٠٧٠م، أنَّ المُنفَقَ على مَوْسِمِ الحَجِّ في هذا الوَقْتِ في كلِّ سنةٍ تُسافِرُ فيه قافِلَةُ الحَجِّ المِصْرِيِّ مئةَ ألْفِ دينارٍ وعشرينَ ألْف دينار، منها ثَمَن الطِّيبِ والخُلُوق والشَّمْعِ راتِبًا في كلِّ سنة عشرة آلاف دينار، ومنها في نَفَقَةِ الوَفْدِ الواصِلِينَ إلى الحَضْرةِ أربعون ألفَ دينارٍ، ومنها في ثَمَنِ الحِمايات والصَّدَقاتِ وأُجْرَةِ الجِمالِ ومَعُونَةِ مَنْ يَسِير مِنَ العَسْكَرِيَّةِ وأمِير المَوْسِمِ

---

(١) راجع المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، قابله بأصوله وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٦م، ٢: ٤٠٠ ـ ٤٠١.

وخَـدَمَةِ القافِلَةِ، وحَفْرِ الآبارِ وغير ذلك سبعون ألف دينارٍ.

وكانت النَّفَقَةُ على القافِلَةِ في زَمَنِ الوَزِيرِ أبي محمَّد الحَسَنِ بنِ عليّ بن عبد الرَّحْمَن اليازُورِيِّ (٤٤٢ـ٤٥٠هـ/١٠٥٠ـ١٠٥٨م) قد زادَت في كلِّ سنةٍ وبَلَغَت مئتي ألفِ دينارٍ. ثم أضافَ بعد ذلك: «ولم تَبْلُغ النَّفَقَةُ على المَوْسِمِ مثلَ ذلك في دَوْلَةٍ من الدُّوَلِ»[1].

أمَّا الطَّرِيقُ الذي كانت تَسْلُكُه قافِلَةُ الحَجِّ في هذا العَصْرِ فيُحَدِّثُنا عنه شَيْخُ مُؤرِّخي مِصْر الإسْلامِيَّة تقيُّ الدِّين أحمد بن عليّ المَقْرِيزِيُّ، المتوفَّى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، قائِلًا: «ظَلَّ حُجَّاجُ مِصْرَ والمَغْرِبِ زِيادَةً على مِئَتَيّ سَنَةٍ لا يتوجَّهون إلى مَكَّة ـ شَرَّفَها اللهُ ـ إلَّا عن صَحْراءِ عَيْذاب يركَبون النِّيلَ من سَاحِلِ مَدِينَةِ مِصْر الفُسْطَاط إلى قُوص، ثم يركبون الإبِلَ من قُوص ويعبُرون الصَّحْراءَ إلى عَيْذابَ، ثم يركبون في الجِلاب إلى جُدَّةَ سَاحِلِ مَكَّة، وكذلك تُجَّارُ الهِنْدِ واليَمَنِ والحَبَشَةِ يَرِدُون إلى عَيْذابَ ثم يَسْلُكون هذه الصَّحْراء إلى قُوصَ ومنها يَرِدُون مَدِينَة مِصْر».

ثم أضافَ: «ولم تَزَلْ هذه الطَّرِيقُ مَسْلَكًا للحُجَّاجِ في ذَهابِهم وإيابِهم زِيادَةً على مئتي سنةٍ من أعْوامِ بضعٍ وخمسينَ وأربعِ مئةٍ إلى أعْوامِ بضعٍ وستِّينَ وستِّ مئة»، أي منذ زَمَنِ الشِّدَّةِ العُظْمَى في مِصْر أيَّامَ الخَلِيفَةِ المُسْتَنْصِر باللهِ الفاطِمِيِّ، وانْقِطَاعِ الحَجِّ في البَرِّ إلى أنْ كَسَا السُّلْطَانُ الملكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرسُ البُنْدُقْداريُّ الكَعْبَةَ وعَمِلَ لها مفتاحًا، وهي بِدايَةُ الاحْتِفال بـ «مَوْكِبِ المَحْمَلِ المِصْريِّ» الذي استمرَّ الاحْتِفالُ به سنويًّا إلى منتصفِ القرنِ العشرين. وخَرَجَتْ أوَّلُ قافِلَةِ حَجٍّ

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، قابله بأصوله وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م، ٢: ٥٩٨، و اتعاظ الحنفا ٢: ٤٠١؛ الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعدَّه للنشر حمد الجاسر، الرياض ـ مؤسسة اليمامة ١٩٨٣م، ٢: ١٢١٧ ـ ١٢١٨.

في البَرِّ في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م فَقَلَّ سُلُوكُ الحَجِّ لهذه الصَّحْراء، وإنِ اسْتَمَرَّتْ بَضَائِعُ التُّجَّارِ القادِمَة من عَدَنَ تُحْمَلُ من عَيْذابَ إلى قُوصَ ومنها إلى فُسْطاطِ مِصْر شَمالًا، حتى بَطَلَ ذلك بعد سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وتَلاشَى أمْرُ قُوصَ من حينئذ. وتُقْطَعُ المَسافَةُ في هذه الصَّحْراء من قُوصَ إلى عَيْذابَ في سبعة عَشْر يومًا، ويُفْقَدُ فيها الماءُ ثَلاثَةَ أيَّامٍ متواليةٍ وتارَةً أربعةَ أيَّامٍ[١].

وقد سَلَكَ هذه الطَّرِيقَ بالفِعْلِ الرَّحَّالَةُ الأنْدَلُسِيُّ ابن جُبَيْر، أبو الحَسَن محمَّدُ ابنُ أحمدَ بنِ جُبيرٍ في رِحْلَتِه إلى مَكَّة سنةَ ٥٧٩هـ/١١٨٤م، وقَدَّمَ لنا وَصْفًا شائِقًا عن ما كان يُعانِيه الحُجَّاجُ خلالَ الرِّحْلَةِ على الأخَصِّ من أصْحابِ الجِلالِ الذينَ كانوا يَنتقِلُونَ الحُجَّاجَ بين عَيْذابَ وجُدَّةَ[٢].

كانت مَواكِبُ الحَجِيج تَتوالَى سنويًّا يَسْبِقُها قافِلَةُ المَحْمَلِ[٣] منذ زَمَنِ السُّلْطَان الظَّاهِرِ بَيْبَرْسَ البُنْدُقْداريِّ، وقامَ بعضُ سَلاطِينِ المَماليكِ بأداءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ، أتَى على ذِكْرِهِم وذِكْرِ مَواكِبِهم مُؤرِّخُ مِصْر التَّقِيُّ المَقْرِيزِيّ في رِسالَتِه الجامِعَة «الذَّهَب المَسْبُوك في ذِكْرِ مَنْ حَجَّ مِنَ الخُلَفَاءِ والمُلُوكِ»[٤].

---

(١) المقريزي: المواعظ ١: ٥٤٩ ـ ٥٥٠؛ الجزيري: الدرر الفرائد ١: ٤٠٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة، بيروت ـ دار صادر ١٩٨٨م، ٣٢ ـ ٥٩؛ وانظر كذلك عطية القوصي: «عَيْذاب ـ جدة طريق الحج المصري على البحر الأحمر في العصور الوسطى» في كتاب طُـرُق الحَجّ: جُسور التواصل الحضاري بين الشعوب، الرباط ـ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ٢٠٠٧م، ٣١١ـ ٣٤١؛ وانظر عن قُوص وأهَمِّيَتها دراسة جان كلود جارسان JEAN - CLAUDE GARCIN, *Un centre musulman de la Haute Egypte medievale: Qus,* Le Caire - IFAO 1974.

(٣) انظر عن تاريخ المحمل المصري الدراسة المهمة لجاك جومييه J. JOMIER, *Le Mahmal et La caravane egyptienne des pelerins de la Mecque (XIII - XX siecles)*, Le Caire - IFAO 1953.

(٤) نشرها جمال الدين الشيال في القَاهِرَة سنة ١٩٥٥م كما نشرها مؤخَّرًا مع ترجمة إنجليزية JO VAN STEENBERGEN وصدرت عن دار نشر بريل بليدن ٢٠١٧م. وذكر الجزيري في كتاب «الدرر=

ولكنْ إلى جانبِ ذلك كانت هناك قَوافِلُ أخرى للحَجيجِ ذات خُصُوصِيَّةٍ اهتمَّ المؤرِّخون بتَسْجِيلِها هي مَوْكِبُ حَجِّ نِساءِ البَيْتِ المملوكيِّ . ففي سنةِ سبعينَ وسبعِ مئةٍ/١٣٦٩م خَرَجَتْ خَوَنْد بَرَكَة خاتُونَ والِدَةُ السُّلْطَان الأَشْرَفِ شَعْبَان في تَجَمُّلٍ خارِجٍ عنِ الحَدِّ وفي خِدْمَتِها جَماعَةٌ مِنَ الأُمَراءِ الكِبارِ وعلى مَحَفَّتِها العَصائِبُ السُّلْطَانيَّةُ والكُوساتُ تَدُقُّ معها، وسارَ مِنْ خَدَمِها من الأُمَراء المُقَدَّمِينَ الأَمِيرُ بَشْتاكُ العُمَرِيُّ رأسُ نَوْبَة والأَمِيرُ بَهادُرُ الجَماليُّ، ومئةُ مملوكٍ من المَماليكِ السُّلْطَانيَّةِ أرْبابِ الوَظائِفِ . ومن جملةِ ما كان معها قِطَارُ جِمالٍ مُحَمَّلَةٍ مَحائِر قد زُرِعَ فيها البَقْلُ والخُضْراواتُ . وعند عَوْدَتِها في سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م خَرَجَ السُّلْطَانُ الأَشْرَفُ شَعْبانُ بعَساكِرِهِ إلى لِقائِها في سادس عَشَر المُحَرَّمِ[1] .

*
* *

كانتِ الرِّحْلَةُ في طَلَبِ العِلْم (أي عِلْم الحَدِيث) من أهَمِّ خَصَائِص العِلْم الإسْلامي، وكان الغَرَضُ منها تَحْصِيلَ عُلُوِّ الإسْناد أو لِقاءَ الحُفَّاظ ومُذاكَرَتهم، لذلك فقد كَثُرَ ارْتِحالُ العُلَماءِ لهذا الغَرَض منذ القُرُون الأولى للإسْلام .

=الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة» في الباب الذي عقده لذكر من حَجَّ من الأعيان : «وكان بعض المتأخِّرين كالمقريزي تكلَّم على نحو هذا الباب وسمَّاه «الذهب المسبوك في تاريخ من حج من الملوك» وقد اطَّلَعت عليه ونَقَّحْتُ ذلك المسبوك وأضفته مُصَفًّى إلى هذا اللُّجَيْن ، ومن طالع كتابي هذا فإنه يقول : لا أثر بعد عين» (الدرر الفرائد ٣: ١٦٥٠) .

[1] المقريزي : المواعظ ٤: ٦٢٦؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢: ٦٦٤. واهتمَّتْ بمَواكِبِ جِهاتِ سَلاطِينِ المماليكِ ووَصَفَتْها الباحِثَةُ المِصْرِيَّةُ دُورِيس بِهْرِن أبو سيف في مَقالٍ نَشَرَتْهُ بعنوانِ : D. BEHRENS ABOUSEIF, «The Mahmal Tradition and the Pilgrinage of the Ladies of the Mamluk Court», *MSR* I (1997), pp.87-96.

وفي الوَقْتِ نفسه كان مَوْسِمُ الحَجّ في مَكَّة المُكَرَّمَة فُرْصَةً مُواتِيَةً يَلْتَقِي فيها العُلَماءُ لهذا الغَرَض أو لمُناقَشَةِ قَضايا الإسْلام المختلفة، كما كانت كذلك مُناسَبَةً يبحثون فيها عن الكُتُبِ التي يَحْتاجُون إليها أو يَفْتَقِدُونَها في بِلادِهم .

وأوَّلُ العُلَماء الذين أدَّوْا فَرِيضَة الحَجّ من مِصْر في نهاية القرن الثَّامِن وفي أثناء القرن التَّاسِع للهجرة/الرَّابع عَشَر والخامس عَشَر للميلاد العَلَّامَة التُّونُسي عبد الرَّحْمَن بن محمَّد بن خَلْدُون (٧٣٢ـ٨٠٨هـ/١٣٣٣ـ١٤٠٥م) . فعندما وَصَلَ إلى مِصْر لأوَّلِ مرَّة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م أقامَ بالإسْكَنْدَرِيَّة شَهْرًا(شهر شَوَّال من السَّنَة) لتَهْيِئَة أسْبابِ الحَجّ، ولم يُقَدَّرْ له عامَئِذٍ فانتقل إلى القَاهِرَة أوَّلَ ذي القِعْدَة[1] حيث أمْضَى بها الخمس والعشرين عامًا الأخيرة من حياته (٧٨٤ـ٨٠٨هـ/١٣٨٣ـ١٤٠٥م)، وشَغِلَ خِلالَها العَدِيدَ من مَناصِب التَّدْرِيس والقَضَاء، وكان قريبًا من سُلْطَانِ عَصْرِه السُّلْطَان الظَّاهِر بَرْقُوق مُؤَسِّس دَوْلَةِ المَمالِيك الشَّراكِسَة (٨٧٤ـ٨٠١هـ/١٣٨٣ـ ١٣٩٨م) .

وفي سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م بعد ثلاث سنوات من عَزْلِه من القَضَاء، عَزَمَ ابن خَلْدُون على قَضَاء فَرِيضَة الحَجّ، يقولُ في سِيرَتِه الذَّاتِيَّة : «فوَدَّعْتُ السُّلْطَانَ والأُمَراءَ وزَوَّدُوا وأعانُوا فوق الكِفايَة، وخَرَجْتُ من القَاهِرَة منتصفَ رَمَضَانَ سنةَ تسعٍ وثمانين [وسبع مئة] إلى مَرْسَى الطُّور بالجانب الشَّرْقي من بَحْرِ السُّوَيْس [وذلك بعد أنْ تراجَعَت مَكانَة ميناء عَيْذاب]، ورَكِبْتُ البَحْرَ من هنالِك عاشِرَ الفِطْرِ ووَصَلْنا إلى اليَنْبُع لشَهْرٍ، فوافَيْنا المَحْمَل، ورافَقْتُهم من هنالك إلى مَكَّة ودَخَلْتُها ثاني ذي الحِجَّة فقَضَيْتُ الفَرِيضَةَ في هذه السَّنَة، ثم عُدْتُ إلى اليَنْبُع فأقَمْتُ به خمسين لَيْلَة حتى تهيَّأ لنا رُكُوبُ البَحْر، ثم سافَرْنا إلى أنْ قارَبْنا مَرْسَى

---

[1] ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا ، عارضه بأصوله وعَلَّق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي ، تونس ـ دار القيروان ٢٠٠٦م ، ٢٥٣.

الطُّور، فاعْتَرَضَتْنا الرِّياحُ فما وَسِعَنا إلَّا قَطْعُ البَحْرِ على جانِبِه الغَرْبي، ونَزَلْنا بسَاحِلِ القُصَيْر ثم بَذْرَقْنا (أي خُفِرْنا) مع أعْرابِ تلك النَّاحِيَة إلى مَدِينَة قُوص قاعِدَة الصَّعِيد، فأرَحْنا بها أيَّامًا، ثم رَكِبْنا في بَحْرِ النِّيل إلى مِصْر فوَصَلْنا إليها لشَهْرٍ من سَفَرِنا ودَخَلْناها في جُمادَى سنة تسعين، وقَضَيْتُ حَقَّ السُّلْطَانِ في لِقائِه وإعْلامِه بما اجْتَهَدْتُ فيه من الدُّعاء له فتَقَبَّلَ ذلك مني بقَبُولٍ حَسَن، وأقَمْتُ فيما عَهِدْتُ من رِعايَتِه وظِلِّ إحْسَانِه»[1].

وواضحٌ أنَّ ابن خَلْدُون لم تَطُلْ إقامَتُه بالحِجَاز ولم يَسْع إلى المُجاوَرَة بمَكَّة واكتفى فقط بأداء الفَرِيضَة، لذلك فإنَّه لم يُحَدِّثْنا عن نَشَاطِه العِلْمِي بالحِجَاز أو مَنْ تَصَادَفَ وُجُودُه هناك من العُلَماء المُسْلِمِين في أثْناء أدائِه الفَرِيضَة. ولكنَّه يُحَدِّثُنا فقط عن مَنِ الْتَقاهُم في أثْناء مُرُورِه بيَنْبُع، فيقول: «وكنتُ لَمَّا نَزَلْتُ باليَنْبُع، لَقِيتُ بهَا الفَقِيهَ الأَدِيبَ المُتْقِن، أبا القاسِم بن محمَّد ابن شَيْخ الجَماعَة، وفارِس الأدَباء ومُنْفِق سُوقَ البَلاغَة، أبا إسْحاق إبراهيم السَّاحِليّ المعروف جَدُّه بالطُّوَيْجِن، وقد قَدِمَ حاجًّا، وفي صُحْبَتِه كَتابُ رِسالَةٍ من صاحِبِنا الوَزِير الكَبِير العالم، كاتِب سِرّ السُّلْطَان ابن الأحْمَر صاحِب غِرْناطَة، الحَظِيِّ لدَيْه، أبي عبد الله بن زَمْرَك؛ خاطَبَني فيه بنَظْمٍ ونَثْرٍ، يَتَشَوَّقُ ويُذَكِّر بعُهُودِ الصُّحْبَة»[2].

*
* *

وجاء حَجُّ شَيْخ مُؤَرِّخي مِصْر الإسْلامِيَّة تَقِيّ الدِّين أحمد بن علي المَقْرِيزِيّ في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م بعد أنِ انْتَهَى من تأليفِ القِسْمِ الأكْبَر من مُؤَلَّفاتِه، وعلى الأخَصِّ مُؤَلَّفه الرَّئِيس «المَواعِظ والاعْتِبار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثَار»، الذي ألَّفَهُ في

---

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٩.

الفترة بين سنتي ٨١٨ و٨٣٢هـ/١٤١٥ و١٤٢٩م وكذلك مؤلَّفاته التَّارِيخِيَّة الأُخْرَى «عِقْد جَواهِر الأسْفَاط»، و «اتِّعَاظ الحُـنَفا بأخْبَارِ الأئِمَّة الخُـلَفا»، والأجزاء الأولى من كتاب «السُّلُوك لمَعْرِفَة دُوَلِ المُـلُوك»، و «المُـقَفَّى الكَبِير» ، و رِسَالَة «إغَاثَة الأُمَّة بكَشْفِ الغُمَّة» التي أَلَّفَها سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م ... إلخ[١] .

وَصَلَ المَـقْرِيزِيّ إلى مَكَّة المُشَرَّفة ومعه أهْلُه في جَماعَةٍ كثيرةٍ من قافِلَة الحَجّ المِصْـرِي الذين خَرَجُوا قاصِدِين أداءَ العُمْرَةِ والحَجّ، في يوم الثُّلاثاء ثامِن عَشَـر جُمادَى الأولى (الآخِرَة) سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م. وكانت عِدَّةُ أحْمالِ هذه القافِلَة نحو أَلْف وخمس مئة حَمْل ومُقدَّمُهم سَعْد الدِّين إبراهيم بن المُـرَّة ناظِر جُدَّة، وكانت هناك أزْمَةٌ في المياه في العام السَّابِق فوَجَدُوا ما بين الوَجْه وأكْرَه عِدَّةَ مَوْتَى ما بين رِجالٍ ونِسِاء ممَّن هَلَكَ بالعَطَشِ من الحاج فدُفِنَ منهم نحو الأَلْف وتُرِكَ ما شاءَ الله ، وذلك لأنَّ الحاجَّ إذا وَرَدَ الوَجْه كان تارَةً يجد الماءَ وتارَةً لا يجده. الأمْرُ الذي أدَّى إلى هَلاكِ النَّاسِ في مَوْسِم سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[٢] .

وحَجَّ كذلك في هذه السَّنَة القاضي زَيْنُ الدِّين عبد الباسِط بن خَلِيل بن إبراهيم الدِّمَشْقِي صاحِبُ المَـدْرَسَة الباسِطِيَّة بخُطِّ الكافُوري بالقَاهِرَة وصُحْبَتُه خَوَنْد جُلْبان زَوْجُ السُّـلْطَان الأشْرَف بَـرْسِباي وأمّ وَلَدِه في تَجَمُّلٍ كبير[٣] .

---

[١] راجع أيمن فؤاد سيد : المقريزي وكتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م .

[٢] المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القَاهِرَة ١٩٧٣م ، ٤: ٨٥٤؛ ابن فهد : إتحاف الورى بأخبار أمّ القرى، تحقيق عبد الكريم علي باز ، مكة المكرمة ـ جامعة أم القرى١٩٨٨م ، ٤: ٥٥ ـ ٥٦؛ الجزيري : المصدر السابق ١: ٧١٨.

[٣] المقريزي : المصدر السابق ٤: ٨٥٨؛ الجزيري : المصدر السابق ٣: ١٨٧٢.

كما حَفَرَ الأمِيرُ شاهِين الطَّوِيل في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م بِئْرَيْن بمَوْضِعٍ يُقالُ له زاعِم وقِبْقَاب[١]. فاستجدَّ بطريق الحِجَاز في المنزلة المعروفة بعُيُونِ القَصَب بِئْرًا احْتُفِرَت بإشارَة القاضي زَيْن الدِّين عبد الباسِط بن خَلِيل فعَظُمَ النَّفْعُ بها[٢].

وجاوَرَ المَقْرِيزِيُّ بمَكَّة نحو خَمْسِ سَنَوات (٨٣٤ - ٨٣٩هـ/١٤٣٠ - ١٤٣٦م) الْتَقَى خِلالَها بالعَدِيدِ من عُلَماء الحِجَاز وبالعُلَماء الذين تَرَدَّدُوا عليه من سَائِر الأقْطار الإسْلامِيَّة، وتَناقَشَ معهم في كثيرٍ من القَضايا التي كان يَهْتَمُّ بها في ذلك الوَقْت كانت مادَّةً غَنِيَّةً للعَدِيدِ من رَسائِله الصَّغِيرَة التي بدأ في تأليفِها، أثناء مجاورته في مَكَّة، يقول:

«وفي شهر رَمَضَان من سنة (٨٣٤هـ مايو ١٤٣١م) ابتدأت في إسْماع كِتابِ «إمْتَاع الأسْماع بما للرَّسُول من الأنْباء والأحْوال والحَفَدَة والمَتاع» من أوَّلِ يوم فيه، بقِراءَة المُحَدِّث الفاضِل تَقِيّ الدِّين محمَّد بن محمَّد بن فَهْد الهاشِمِي بالمَسْجِد الحَرَام تجاه المِيزاب، وكان جَمعًا مَوْفُورًا»[٣].

وعندما تَرْجَمَ لتقيّ الدِّين محمَّد بن محمَّد بن فَهْد المَكِّي في «دُرَر العُقُودِ الفَرِيدَة» قال: «ولمَّا جاوَرْتُ بمَكَّة، في سنة أرْبَعٍ وثلاثين وثماني مئة، قرأ عليَّ كِتابَ «إمْتَاع الأسْماع بما للرَّسُول من الأنْباء والأحْوال والحَفَدَة والمَتاع» وكَتَبَ منه نُسْخَةً بخَطِّ وَلَدِه عُمَر قبل أنْ أُكْمِلَه، ثم يَسَّرَ الله تعالى بإكْمالِه بعد عَوْدَتي إلى القَاهِرَة»، ثم أضافَ: «وابن فَهْدٍ هذا ووَلَدُه عُمَر هما مُحَدِّثا الحِجَاز وهو ووَلَدُه عُمَر كَثِيرا الاسْتِحْضَار، وأرْجُو أنْ يَبْلُغَ ابْنُه عُمَر في هذا العِلْم مَبْلَغًا عَظِيمًا

---

(١) الجزيري: المصدر السابق ١: ٢٥٠.

(٢) المقريزي: المصدر السابق ٤: ٨٥٩؛ الجزيري: المصدر السابق ١: ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٨٥٨.

لذَكائِه واعْتِنائِه بالجَمْع والسَّماع والقِراءَة بارَكَ الله له فيما آتاه»[١].

ورغم أنَّ المَقْرِيزِيَّ دَخَلَ مَكَّة بعد وَفَاةِ مؤرِّخِها تَقِيّ الدِّين محمَّد بن أحمد الفاسِي المَكِّي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م إلَّا أنَّه كان قد الْتَقاه بالقَاهِرَة ووَصَفَهُ بأنَّه بَحْرُ عِلْمٍ وكَنْزُ فَوائد ولم يُخَلَّف بالحِجَاز مثله.

وتَرْجَمَ المَقْرِيزِيُّ في «دُرَر العُقُود الفَرِيدَة» لأبي العَبَّاس أحمد بن محمَّد بن عيسى اللَّجاني الفاسِي المَغْرِبي المالِكِي، المتوفَّى سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، قال: «خَرَجَ إلى الحَجِّ في سنة ثَمانٍ وثلاثين وثماني مئة فأدَّى فَرِيضَة الله وجاوَرَ بمَكَّة فلَقِيَنِي بها سنة تسعٍ وثلاثين ولازَمَنِي وسَمِعَ عليَّ بَعْضَ كِتابِ «إمْتَاع الأسْمَاع»، ونِعْمَ الرَّجُل هو»[٢].

واصْطَحب المَقْرِيزِيُّ في مُجاوَرَتِه بمَكَّة عَدَدًا من مؤلَّفاته كان يُضِيفُ إليها ويُعَلِّقُ عليها، من بينها كِتابُ «دُرَر العُقُود الفَرِيدَة»؛ فيُوجَدُ على ظَهْرِيَّة نُسْخَتِه التي كَتَبَها بخَطِّه والمحفوظة الآن بمكتبة غُوطا بألمانيا برقم Ar.270 خَطُّ تِلْمِيذِه عُمَر بن محمَّد بن محمَّد ابن فَهْد المَكِّي مُؤَرَّخٌ سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥ م، ونَصُّه:

«الحمد لله، طالَعَه من أوَّلِه إلى آخِرِه مستفيدًا منه داعيًا لمؤلِّفِه بالبقاء ودوام الارْتِقاء العبدُ محمد المدعو عمر بن محمد بن فَهْد الهاشِمي المكي سنة ٨٣٩».

وطالَعَ هذه النُّسْخَة نفسها في القَاهِرَة بعد وَفاة المَقْرِيزِي الحافِظُ النَّاقِدُ شَمْسُ الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحْمَن السَّخَاوِي وسَجَّلَ بخَطِّه على ظَهْرِيَّة النُّسْخَة أيضًا:

«كذا طالَعَهُ واسْتَفادَ منه محمَّد بن عبد الرَّحْمَن السَّخَاوِي سنة ٨٥٤».

---

(١) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م، ٣: ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٢) المصدر نفسه ١: ٢٧٦.

والكِتابُ مَصْدَرٌ مُهِمٌّ من مَصَادِر السَّخَاوِي في «الضَّوْء اللَّامِع» ويُشِيرُ إلى المُـتَـرْجَمِين الذين نَـقَلَهُم منه بقوله : «ذَكَرَهُ المَـقْرِيزِيُّ في عُقُودِه» .

ومِنَ المُؤَلَّفات التي بدأ المَـقْرِيزِيُّ في تأليفِها في أثْناء مُجاوَرَتِه بمَكَّة كِتابُ «الطُّرْفَة الغَرِيبَة في أخْبَارِ وادِي حَضْـرَمْوت العَجِيبَة» حيث يقولُ في مُقَدِّمَتِه : «وبعد فهذه جُمْلَةٌ من أخْبَارِ وادِي حَضْـرَمَوْت عَلَّقْتُها بمَكَّة شَرَّفَها الله تعالى أثْناء مُجاوَرَتي بها في عام تسعٍ وثلاثين وثمان مئةتفوق، حَدَّثَني بها ثِقاتُ مَنْ قَدِمَ مَكَّة من أهْلِ حَضْرَمَوْت» .

وكذلك كِتابُ «الإلْمام بأخْبَارِ مَنْ مَلَكَ الحَـبَش من مُلُوكِ الإسْلام» ، يَقُولُ في مُقَدِّمَتِه : «وبعد فهذه جُمْلَةٌ من أخْبارِ الطَّائِفَة القائِمَة بالمِلَّة الإسْلامِيَّة بِبلادِ الحَـبَشَة المُـجَاهِدِين في سَبِيلِ الله مَنْ كَفَرَ به وصَدَّ لِـرُسَلِيه، تَلَقَّيْتُها بمَكَّة شَرَّفَها الله تعالى أيَّامَ مُجاوَرَتِي بها في سنة تسعٍ وثلاثين وثمان مئةتفوق من العارِفِين بأخْبارِهِم» .

وقد أعادَ المَـقْرِيزِيُّ كِتابَة هذه الرَّسَائِل بعد عَوْدَتِه إلى القَاهِرَة وكَلَّفَ أحَدَ تَلامِيذِه بنَسْخِها ، هو محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله المُظَفَّرِي[1]، ثم قَرَأها وأدْخَلَ عليها تَصْوِيبَات بخَطِّه كما جاءَ في نهاية رِسَالَة «الطُّرْفَة الغَرِيبَة» :

> «تَتَبَّعَهُ مؤلِّفُه أحمد بن علي المقريزي فصَحّ في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وثمان مئة» .

وفي نهاية «الإلمام بأخْبَارِ مَنْ بأرْضِ الحَـبَش مِن مُلُوكِ الإسْلام» :

> «حَرَّرَهُ جامِعُه ومُؤَلِّفُه أحمد بن علي المَقْرِيزِي في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وثمان مئة فصَحَّ جُهْدَ الطَّاقَة» .

---

[1] السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ـ مكتبة القدسي ١٣٥٣ـ١٣٥٥هـ ، ٧: ٧٦.

يَدُلُّ على هذا العَمَلِ الآن مجموعُ رَسَائِل المَـقْرِيزِيّ المحفوظ بمكتبة جامعة لَيْدِن بهُولَنْدا برقم Or.560.

ورُبَّما يكون المَـقْرِيزِيُّ قد كَتَبَ أيضًا مادَّة كِتابِه «الذَّهَب المَسْبُوك في ذِكْرِ مَنْ حَجَّ مِنَ الخُـلَفَاء والمُـلُوك» في أثْناء مُجاوَرَتِه بمَكَّة، الذي تُوجَدُ منه نُسْخَةٌ ضِمْن المجموع السَّابِق ذِكْرُه جاءَ بآخِرِها بخَطِّ المَـقْرِيزِيّ :

«حَرَّرَهُ جُهْدَ القُدْرَة فصَحَّ مؤلِّفُه أحمد بن علي المَـقْرِيزِيُّ في ذي القعدة سنة ٨٤١» .

وفي أثْناء مُجاوَرَتِه بمَكَّة كان المَـقْرِيزِيُّ دائِمَ التَّرَدُّد على خَزائِن كُتُبِها فنَسَخَ بخَطِّ يَدِه نُسْخَةً من كِتابِ «مُخْتَلَف القَبائِل ومُؤْتَلِفها» لأبي جَعْفَر محمَّد بن حَبِيب ، المتوفَّى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩ م، وأضافَ المَـقْرِيزِيُّ على ظَهْرِيَّة النُّسْخَة، وهي تُمَثِّلُ الآن الكَتابَ الأوَّل في المجموع السَّابِق الإشارَة إليه بمَكْتَبَة جامِعَة لَيْدِن :

«أكثر ما فيه من الضَّبْط بالحُـرُوف ليس من الأصْل لكنه معتمَد فثِقْ به» .

وجاءَ في حَرْدِ مَتْن النُّسْخَة :

«تَمَّ كِتابُ مُخْتَلَف القَبائِل ومُؤْتَلِفها ، تأليف أبي جَعْفَر محمَّد بن حَبِيب على يد أحمد بن علي بن عبد القادِر المَـقْرِيزِيّ الشَّافِعِي بمَكَّة المُشَرَّفَة في يوم الأربعاء سابع عشرين شهر ربيع الآخر سنة تسعٍ وثلاثين وثمان مئة» .

(وعن هذه النُّسْخَة نَشَر فرديناند ويستنفلد WUSTENFILD الكتاب بمدينة غوطا Gotha بألمانيا سنة ١٨٥٠م) .

وسَجَّلَ المَـقْرِيزِيُّ كذلك في كتاب «السُّلُوك لمَعْرِفَة دُوَلِ المُـلُوك» بعض الأحْداث التي شاهَدَها بمَكَّة، من ذلك ما أوْرَدَهُ في حَوادِث سنة سَبْعٍ وثلاثين وثمان مئة :

«وفي لَيْلَةِ الجُـمُعَة سادس عشرين جُمادى الأولى وَقَعَ بمَكَّة المُشَرَّفة مَطَرٌ غَزِيرٌ سالَت منه الأوْدِيَةُ وحَصَلَ منه أمْرٌ مَهُولٌ على مَكَّة، بحيث صارَ الماءُ في المَسْجِدِ الحَـرَام مُرْتَفِعًا أرْبَع أذْرُع، فلمَّا أصْبَحَ النَّاسُ يَوْمَ الجُـمُعَة ورأوا المسْجِدَ الحَـرَام بَحْرَ ماء، أزالوا عَتَبَة باب إبراهيم، حتَّى خَرَجَ الماءُ من المَسْفَلَة، وبقي بالمَسْجِد طِينٌ في سائِر أرْضِه قَدْرَ نِصْفِ ذِراعٍ في ارْتِفاعِه، فانْتُدِبَ عِدَّةٌ من التُّجَّار لإزالَتِه.

وتَهَدَّمَ في الليلة المذكورة دُورٌ كثيرة، يقول المُـكْثِرُ زِيادَةً على ألْفِ دار. ومات تحت الرَّدْم اثنا عشر إنسان، وغَرِقَ ثمانية أنْفُس. ودَلَفَ سَقْفُ الكَعْبَة، فابْتَلَّت الكُسْوَةُ التي بداخِلِها، وامْتلأت القَنادِيلُ التي بها ماء. وحَدَثَ عُقَيْب ذلك السَّيْلُ بمَكَّة وأوْدِيَتِها، وبأطْرُق من اليَمَن»[1].

وقد اسْتَدْعَى ذلك إجْراءَ أعْمالِ صِيانَةٍ وتَرْمِيمٍ بالحَـرَم أشارَ إليها المَـقْرِيزِيُّ في أحْدَاثِ سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م، حيث انْتَهَت في شهر رَبِيعٍ الأوَّل عِمارَةُ سَقْفِ الكَعْبَة ـ شَرَّفَها الله تعالى ـ على يد سُودُون المُـحَمَّدِي، وشُرِعَ في هَدْمِ المَنارَة التي على الباب اليَمَنِي من المَسْجِد الحَـرَام، فهُدِمَت وبُنِيَت بِناءً عالِيًا[2].

كما حُمِلَ في هذه الأيّام إلى مَكَّة المُشَرَّفة من الرُّخام ما ذَرْعُه سبعون ذِراعًا لمَـرَمَّة الحِجْر وشاذِرْوان البَيْت، وحُمِلَ من الجِنْسِ خمسون حملًا لبَياض أرْوِقَة المَسْجِد الحَـرَام ومن الحَدِيد عشرة قَناطِير لعَمَلِ مَسامِير وأربعون قِطْعَة خَشَب لشَدِّ أرْوِقَة المَسْجِد الحَـرَام[3].

هذه هي الحَـجَّة المشهورة للمَـقْرِيزِي التي جاوَرَ فيها بمَكَّة خَمْس سَنَوات بعد أنْ أتَمَّ تأليفَ القِسْم الأكْبَر من مُؤَلَّفاتِه الكَبِيرَة، ولكن من خِلالِ كِتابِه «دُرَر العُقُود

---

(١) المقريزي: السلوك ٤: ٩٠٨ ـ ٩٠٩.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٩٣٤.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٩٣٦.

الفَرِيدَة» ، الذي يُعَدُّ المَصْدَرَ الوَحِيد الذي نَسْتطيعُ أنْ نَسْتَخْرِجَ منه سِيرَةً ذاتِيَّةً له ، وعلى الأخَصِّ ما يتعَلَّقُ بمَجْرَى حَياتِه العِلْمِيَّة وبدايَاتِها، والذي أشارَ فيه إلى مَشَائِخِه الذين أخَذَ عنهم العِلْمَ ومَنْ قَرَأ عليه من التَّلامِيذ ومَنْ صَحِبَه أثْناء أدائِه للفَرِيضَة ؛ وأغْلَبُ من تَرْجَمَهُم في هذا الكِتابِ من أقْرانِه وأصْدِقائه . نَعْرِفُ من خِلالِ هذا الكِتابِ أنَّ المَقْرِيزِيّ غادَرَ مِصر لأوَّلِ مَرَّة لأداءِ فَرِيضَة الحَجّ والمُجاورَة بمَكَّة، بين سنتي ٧٨٣ و٧٩٠هـ/١٣٨١ و١٣٨٨م،في مُقْتَبَلِ حَياتِه العِلْمِيَّة قبل أنْ يشْرَعَ في التَّأليف والكِتابَة، حيث تَوَجَّه لأدَاءِ الفَرِيضَة في سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١ م، يَقُولُ في تَرْجَمَة محمَّد بن أحمد بن حَسَن الحِجَازي : «رَافَقَنا إلى مَكَّة ـ شَرَّفَها الله ـ ذَهابًا وإيابًا ومُجاوَرَةً في سنة ثَلاثٍ وثمانين وسَبْع مئة»[1] . ويقولُ في ترجمة بُرْهان الدِّين إبراهيم بن عليّ بن إبراهيم الشَّامِي الواعِظ : «سَمِعْتُ بقِراءَتِه في مَكَّة ـ شَرَّفَها الله وكَرَّمَها ـ أيَّامَ مُجاوَرَتي بها في عام ثلاثَةٍ وثمانين وسَبْع مئة كِتابَ «الشِّفَا بتَعْرِيفِ حُقُوقِ المُصْطَفَى» من تأليف القاضي أبي الفَضْل عِياض ـ رَحِمَهُ الله ـ على أبي السَّعَادات سَعْد الدِّين سَعْد الله ابن عُمَر الإسْفَراييني ـ عَفَا الله عنه ـ وجَمِيعَ كِتابِ «الصَّحِيح» من تَخْرِيجِ الإمام أبي الحسين مُسْلِم بن الحَجَّاج ـ رَحْمَةُ الله عليه ـ على الفَقِيه العالم جَمالِ الدِّين إبراهيم بن محمَّد الأمْيُوطِي ـ غَفَرَ الله له ـ بقِراءَة الأمير الفَقِيه بَدْرِ الدِّين حَسَن بن خاصّ بك، وسَمِعْتُ مِيعادَه غير مَرَّة فلم أسْمَع مِيعادًا مثله جَوْدَةَ قِراءَةٍ وحُسْنَ أداءٍ وطِيبَ نَغَمَةٍ وشَجا صَوْتٍ مع الطَّلاوَة والقَبُول ومَلاحَةِ الوَجْه»[2] .

وأدَّى المَقْرِيزِيُّ كذلك فَرِيضَةَ الحَجّ في سنة سَبْع وثمانين وسَبْع مئة، يقولُ في ترجمة ناصِر الدِّين أبي المعالي محمَّد بن عبد الدَّائم المَيْلَق الشَّافِعي : «ولقد جاوَرْنا مُدَّةً، فلمَّا عَزَمْتُ على الحَجّ في سنة سَبْعٍ وثمانين وثمان مئة زَوَّدَني عندما وادَعْتُه

---

(١) المقريزي : درر العقود الفريدة ٣: ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه ١: ١٠١، ١٠٦ ـ ١٠٧، ٢: ٦، ٩٧، ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

بدُعاءٍ جَرَّبْتُ الإجابَة عَقِبَه غير مَرَّة، وهو : «اللَّهُم إنِّي أسْألُكَ باسْمِكَ العَظِيم الأعْظَم الكَبِير الأكْبَر، الذي إذا دُعِيت به أجَبْتَ وإذا سُئِلْت به أعْطَيْتَ أنْ تُصَلِّي على محمَّدٍ وآلِه وأنْ تَنْظُرَ إليَّ بعَيْنِ الرِّضَى وتَلْطُفَ في جميع أحْوالي»، وتَسْألَ حاجَتَكَ»[١] .

وصَحِبَ المَـقْرِيزِيُّ كذلك الشَّيْخَ بُرْهانَ الدِّين إبراهيم بن أحمد بن حسين المَوْصِلي المالِكِي، الذي جاوَرَ بمَكَّة نحو ثلاثين سَنَةً حتى ماتَ بها سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٣م، أثْناء مُجاوَرَته بمَكَّة سنة سبعٍ وثمانين وسبع مئة وشاهَدَ منه وَرَعًا ونُسُكًا، وذَكَرَ أنَّه كان يَتَقَوَّتَ من النَّسْخِ للنَّاس بالأُجْرَة ، ثم أضافَ : «ثم أهْلَلْتُ أنا وإيَّاه بالحَـجِّ جَمِيعًا من المَسْجِدِ الحَرَام في ثامِن ذي الحِجَّة سنة تسعين، وخَرَجْنا مُشَاةً إلى مِنًى، ونَزَلْنا مَسْجِدَ الخَـيْف، وسِرْنا من مِنَى مُشاةً حتى نَزَلْنا مَسْجِدَ إبراهيم من نَمِرَة، وصَلَّيْنا وَرَاءَ الإمام الظُّهْرَ والعَصْـر، ومَشَيْنا إلى عَرَفَة، ووَقَفْنا حتى أفَضْنا، وبِتْنا بمُزْدَلِفَة حتى وَقَفْنا بعدَ صَلاةِ الصُّبْحِ بالمَشْعَرِ الحَرَام، ثم أفَضْنا إلى مِنَى مُشاةً ، فحالَ بيني وبينه ازْدِحامُ النَّاسِ بمِنَى، وكان هذا آخِرَ عَهْدي به، فرَحِمَهُ الله من رَجُلٍ ما كان أكثر تَحَـرِّيه في الوَرَعِ وأشَدّه في ذاتِ الله تعالى»[٢] .

ومن أهَمِّ الذين الْتَقاهُم المَـقْرِيزِيُّ أثْناء مُجاوَرَتِه الأولى في مَكَّة اللُّغَوِي الكَبِير محمَّد بن يَعْقُوب الفِيرُوزآبادِي صاحِب كِتاب «القامُوس المُحِيط»، المتوفَّى بزَبِيد باليَمَن سنة ٨١٧هـ/١٤١٥م، والذي وَصَفَه المَـقْرِيزِيُّ بـ «إمام النَّاسِ في عِلْمِ اللُّغَة[٣]» . وخَتَمَ ترجمته له بقوله : «وآخِرُ ما اجْتَمَعْتُ به بمَكَّة سنة تسعين وسبع مئة، وقَرَأتُ عليه بَعْضَ مُصَنَّفاتِه وناوَلَني كِتابَ «القـامُوس» وأجازَ لي رِوايَتَه

---

(١) المقريزي : درر العقود الفريدة ٣: ١٤٠، وانظر كذلك المواعظ والاعتبار ٤: ١١٦.

(٢) المصدر نفسه ١: ٧٠، وانظر كذلك ١: ٧٥، ١٣٢، ١٧٢، ٢: ٣٥٢، ٣: ٤٥٠، ٥٧٥.

(٣) المصدر نفسه ٣: ١٧٣.

وجَمِيع ما يَجُوزُ له وعنه رِوايَتُه وأفادَني عِدَّةَ فَوائِدَ جَمَّة، رَحِمَهُ الله»[١] .

*
* *

أمَّا قَرِينُ المَقرِيزِي وجارُه الحافِظُ المُحَدِّثُ شِهَابُ الدِّين أبو الفَضْل أحمد بن عليّ بن حَجَر العَسْقَلاني ، المتوفَّى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م ، الذي وُلِدَ بمصر العَتِيقَة سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧٣م وتَحَوَّلَ إلى القَاهِرَة وسَكَنَها قبل نِهايَة القَرْنِ الثَّامِن الهجري/الرابع عَشَر الميلادي ، كان قد رَحَلَ إلى الإسْكَنْدَرِيَّة في أواخِر سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٥م[٢]، ورَجَعَ منها إلى مِصْر وأقامَ بها إلى يَوْمِ الخَمِيس ثاني عشرين شَوَّال سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م ثم ظَهَرَ منها قاصِدًا أرْضَ الحِجَازِ من البَحْرِ وأدَّى الفَرِيضَة ثم قَصَدَ البِلادَ اليَمَنِيَّة مع صُحْبَةٍ فوَصَلُوها في رَبِيعٍ الأوَّل سنة ثمان مئة «فلَقِيَ بتَعِز وزَبِيد وعَدَن والمَهْجَم ووادِي الخَصِيب وغَيْرِها غَيْرَ واحِدٍ»[٣] .

ورَجَع ابْنُ حَجَر من اليَمَن صُحْبَة المَحْمَل الذي جَهَّزَه السُّلْطانُ الأشْرَفُ إسْماعِيل الرَّسُولي صاحِبُ اليَمَن إلى مَكَّة، بعد انْقِطاعٍ دامَ نحو عِشْرِين سنةٍ، مع محمَّد بن عَجْلان بن رُمَيْثَة الحَسَنِي فرافَقَه ابن حَجَر فسَلِمَ لذلك من العَطَشِ الذي أصابَ أكثرَ الحُجَّاج تلك السَّنَة وهَلَكَ بسَبَبِه أكْثَرُهُم . ووَصَلَ إلى مَكَّة المُشَرَّفَة فحَجَّ في سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م، يقولُ السَّخَاوِي : «وهذه هي حَجَّةُ الإسْلام وهي الثَّالِثَة بل الخامِسَة بالنَّظَرِ لمُجاوَرَتِه مع وَصِيِّه وأبِيه .... لأنَّه كان وهو مُراهِقٌ مُجاوِرًا في سنة سِتٍّ وثَمانِين مع وَصِيِّه وقَبْلها وهو طِفلٌ مع والِدِه . ثم حَجَّ

---

(١) المقريزي : درر العقود الفريدة ٣: ١٧٧.

(٢) السخاوي : المصدر السابق ٢: ٣٦، ٣٧.

(٣) السخاوي : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، تحقيق حامد عبد المجيد وطه الزيني ، القاهرة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٨٦م ، ١: ٤٨، ٨٦.

أيْضًا في سنة خَمْسٍ وثَمان مئة وكانت الوَقْفَةُ فيها في يوم جُمُعَة فسَمِعَ فيها قائِلًا يقولُ: «لا إله إلَّا الله ماتَ البُلْقِيني». قال: فلمَّا كنت بمِنًى أخْبَرَني صاحِبُنا المُحَدِّثُ الفاضِلُ أبو الفَضْلِ بن حَجَر أنَّه قَدِمَ من القاهِرَة كِتابٌ لشَخْصٍ من تُجَّارِها يُقالُ له ابن سَلام في حادِثَتين طامَّتين: مَوتُ البُلْقِيني وهو أعْظَمُها، ومُحاصَرَةُ النَّصارَى الإسْكَنْدَرِيَّة»[١]. وجاوَرَ ابن حَجَر كذلك في سنة سِتٍّ وثماني مئة وسافَرَ منها إلى اليَمَن، وهي المَـرَّة الثَّانِيَة؛ ثم حَجَّ أيْضًا في سنة ٨١٥هـ/١٤١٣م، حيث اجْتَمَعَ به جَماعَةٌ من فُضَلاء مَكَّة وأعْيانِها فقَرؤا عليه وحَمَلُوا عنه بعض تَصانِيفِه وغيرها وأذِنَ لهم بالرِّوايَة عنه. وكانت الحَـجَّةُ الأخِيرَة في سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م حيث تأخَّرَ في القاهِرَة بعد خُرُوجِ الحَاجّ عَشْرَةَ أيَّامٍ أو أكثر ثم تَوَجَّه على الرَّواحِل هو وصِهْرُه القاضِي مُحِبُ الدِّين محمَّد بن عُثْمان بن سُلَيْمان بن الأشْقَر وقَرِيبُه الزَّيْنِي شَعْبان فأدْرَكوا الرَّكْبَ بالقُرْبِ من الحَـوْراء فرافَقَهُم إلى مَكَّة؛ وكانت الوَقْفَةُ الجُمُعَة فحَجُّوا ثم عادُوا صُحْبَتَهُم. وأقامَ ابن حَجَر في هذه المَـرَّة في المَدْرَسَة الأفْضِلِيَّة أنْزَلَه بها قاضِي مَكَّة المُحِبُّ بن ظَهِيرَة[٢]. و أخَذَ عنه في هذه الحَجَّة جَماعَةٌ من فُضَلاء مَكَّة وأعْيانِها «المُسَلْسَل بالأوَّلِيَّة» وبَعْضًا من تَرْجَمَة البُخَارِي التي ذَكَرَها في مُقَدِّمَةِ شَرْحِه وذلك بمَجْلِس عبد الله بن عَبَّاس ـ رَضِيَ الله عنهما ـ بالسَّبيل المنسوب لجَـقْمَق المُلاصِق لبِئْر زَمْزَم من المَسْجِدِ الحَرام وهو تِجاه الحَـجَرِ الأسْوَد[٣].

---

(١) السخاوي: المصدر السابق ١: ٨٩.

(٢) المصدر نفسه ١: ٩١.

(٣) المصدر نفسه ١: ٩٣.

*
* *

ولم يُسَافِر تِلْمِيذُه الحافِظُ شَمْسُ الدِّين أبو الخَيْر محمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن محمَّد السَّخَاوِي الأصْل القاهِرِي المَوْلِد الشَّافِعِي المَذْهَب نَزِيل الحَرَمَيْنْ الشَّرِيفَيْن خارِج مِصْر إلَّا بعد وَفاةِ شَيْخِه ـ السَّابِق الإشارَة إليه ـ الحافِظ شِهابِ الدِّين أحمد ابن عليّ بن محمَّد المعروف بابن حَجَر العَسْقَلاني سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م.

وقد جاوَرَ السَّخَاوِي بمَكَّة أرْبَعَ مَرَّات[1] حيث سافَرَ لأداءِ فَرِيضَةِ الحَجّ أوَّلَ مَرَّة في أوائِل جُمادَى الآخِرَة سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م وكان يَصْطَحِبُ معه والِدَتَه. فخَرَجَ من مِصْر مارًّا بالطُّور ومنه رَكِبَ إلى يَنْبُع ثم إلى جُدَّة حتى وَصَلَ مَكَّة في أوائل شَعْبان من هذه السَّنَة فأقامَ بها إلى أنْ أدَّى فَرِيضَةَ الحَجّ.

وخلال هذه الفترة تَعَرَّفَ السَّخَاوِي على النَّجْم عُمَر بن محمَّد بن فَهْد، الذي أعانَه على الوُصُول إلى خَزَائِن الكُتُب المَكِّيَّة والتَّعَرُّف على كِبارِ الشُّيُوخ والعُلَماء.

يقولُ السَّخَاوِي إنَّه قَرأ في خَلالِ هذه المُدَّة من الكُتُبِ الكِبار والأجْزاء القِصَار ما لم يَتَهَيَّأ لغيره من الغُرَباء ولا من غيرهم في مثل هذه المُدَّة، وقرأ داخِلَ البَيْتِ المُعَظَّم وبالحِجْر وعُلُوّ غارِ ثَوْرٍ وجَبَلَ حِرَاء وأبي قُبَيْس وبكثير من المَشَاهِد المأثُورَة بمَكَّة وظاهِرِها كالجِعِرَّانَة ومِنًى ومَسْجِد الخَيْف على خَلْقٍ كأبي الفَتْح المَراغِي والبُرْهَان الزَّمْزَمِي والتَّقِيّ بن فَهْد والزَّيْن الأمْيُوطِي والشِّهاب الشَّوائِطِي وأبي السَّعادات بن ظَهِيرَة وأبي حامِد بن الضِّيَاء، وزِيادَةٍ على ثلاثين نَفْسًا سوى مَنْ أجازَ له فيها وهم أضْعافُ ذلك.

---

[1] اعتمدت في خبر السخاوي على الترجمة الذاتية Autobiogrophy التي كتبها لنفسه في جمادى الثانية سنة ٨٩٩هـ/ أبريل سنة١٤٩٤م وأوردها في الضوء اللامع ٨: ٢ ـ ٣٢ ولَخَّصَها عنه ابن العماد في شذرات الذهب ٨: ١٥ ـ ١٧.

وبعد انْفِصالِه عن مَكَّة وهو في طريق عَوْدَتِه إلى القَاهِرَة قَرَأ في المَدِينَة الشَّرِيفة تجاه الحُجْرَة النَّبَوِيَّة على البَدْرِ عبد الله بن فَرْحُون وعلى الشِّهاب أحمد ابن النُّور المَحَلِّي وأبي الفَرَج المَراغِي، ثم في يَنْبُع وعَقَبَة أيْلَة وقبل ذلك برَابِغ وخليص.

وكانت رِحْلَتُهُ الثانية إلى مَكَّة في سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م، حيث تَوَجَّه بصُحْبَة عِيالِه وأكبر إخْوَتِه ووالداه للحَجّ، وحَدَّثَ وهو هناك بأشياء من تَصَانِيفِه وغيرها وأقرأ «ألْفِيَّةَ الحَدِيث» تقسيمًا وغالِب شَرْحِها لناظمِها و«النُّخبة» وشَرْحَها، وأمْلَى مَجالِس، كُلُّ ذلك بالمَسْجِد الحَرَام. وتَوَجَّه لزيارة ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ بالطَّائِف يرافقه في ذلك صاحِبُه النَّجْمُ ابن فَهْد فسَمِعَ من هناك بعض الأجْزاء.

ثم حَجَّ مَرَّةً ثالثة في سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٨م وجاوَرَ سنة ٨٨٦هـ/١٤٨٩م، ثم سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، وأقامَ فيها ثلاثة أشهر بالمَدِينَة النَّبَوِيَّة. ثم عاوَدَ الحَجَّ في سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، وجاوَرَ سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م، وسنة ٨٩٤هـ/١٤٨٩م؛ وحَجَّ كذلك في سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م، وجاوَرَ إلى أثناء سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م، فتوجَّه إلى المَدِينَة النَّبَوِيَّة وأقام بها أشْهُرًا وصامَ رَمَضَان بها، ثم عادَ إلى مَكَّة في شَوَّال. ويُضِيفُ بعد ذلك في ترجمته الذَّاتِيَّة، «وهو الآن في جُمادَى الثَّانية من التي تليها بها خُتِم له بخير»، الأمْرُ الذي يُفِيدُ أنَّه كتب ترجمته الذَّاتِيَّة سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م.

وقد حَمَلَ النَّاسُ من أهْلِ مَكَّة والمَدِينَة والقادِمِين عليهما عنه الكثيرَ جدًّا رِوايَةً ودِرايَةً، وحَصَّلُوا من تَصانِيفِه جُمْلَةً، وسُئِلَ في الإمْلاءِ هناك فما وافَقَ، وإنْ كان أمْلَى بالمَدِينَة النَّبَوِيَّة شيئًا لأُناسٍ مخصوصين.

وظَلَّ السَّخَاوِي في مُجاوَرَتِه الخامِسَة بمَكَّة يُحَدِّثُ ويُقْرِئ حتى سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م، حيث توجَّه إلى المَدِينَة فوَصَلَها في مساء يوم الاثنين التاسع عشر من

ذي الحِجَّة فاستقرَّ بها بالمَدْرَسَة الزَّيْنِيَّة تجاه باب الرَّحْمَة يُحَدِّثُ ويُقْرئُ حتى وافاهُ الأَجَلُ يوم الأَحَد الثَّامِن والعشرين من شَعْبان سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، ودُفِنَ بالبَقِيع بجِوار مَشْهَدِ الإمام مالِك .

وسَجَّلَ السَّخَاوِي رِحْلَتَه إلى الحِجَاز وما أَخَذَهُ عن عُلَمائِها أو أفادَ به طُلّابَها في كِتابِه «الرِّحْلَة المَكِّيَّة»، وهو كِتابٌ لم يَصِل إلينا .